**المحاضرة السادسة: قضية الفحولة عند النقاد**

**بين الطبقة والفحولة:**

ترتبط الفحولة في النقد العربي القديم بالطبقة تراثيا ونقديا، تراثيا لارتباطهما في تسمية الكتاب الرائد لابن سلّام الجمحي (طبقات فحول الشعراء)، ونقديا لأن الطبقية تراتبية، لا مناص أن يكون على رأسها الفحول من الشعراء.

وفي ربط واضح بين الطبقة والفحولة، يرِد نص الجاحظ الذي يقول فيه:"والشعراء عندهم أربع طبقات. فأولهم: الفحل الخنذيذ، والخنذيذ هو التام. قال الأصمعي: قال رؤبة "الفحولة هم الرواة"، ودون الفحلِ الخنذيذِ الشاعرُ المـُفلِق، ودون ذلك الشاعر فقط، والرابع الشُّعْرور..."[[1]](#footnote-2).

والفحل في اللغة الذَكَر من كل حيوان وجمعه أفحُل وفحول وفحولة وفِحال وفِحالة...[[2]](#footnote-3). ولما كانت الذكورة ملازمة عادةً للغلبة، أطلقت الفحولة على الشعراء الذين غلبوا غيرهم بالهجاء.. فـ "... فحول الشعراء هم الذين غلبوا بالهجاء من هاجاهم ...  وكذلك كل من عارض شاعرا فغلب عليه ..."[[3]](#footnote-4). وللأصمعي عبد الملك بن قُريب (ت.213 هـ) كتاب (فحولة الشعراء) الذي هو من أول الكتب التي يحمل عنوانها هذا اللفظ بالمعنى الاصطلاحي.

ومن البيّن أن الفحولة كما تدل على الذكورة، تدل على النضج والإدراك، فلا يكون الذكر من الإبل مثلا فحلا، حتى يبلغ السن التي تجعله مهيأ لإخصاب الناقة. لذلك قارن الأصمعي بين الفحل والحِقاق، حين سئل عن معنى الفحل من الشعراء فأجاب بأنه ما "... له مزيّة على غيره كمزية الفحل على الحقاق ..."[[4]](#footnote-5)، والحِقّ من الإبل ما طعن في السن الرابعة.

الإكثار أهم مستلزمات الفحولة

ولما كانت الكثرة من مقومات القوة وأسباب الغلبة، وكانت الفحولة في  الذكر من الحيوان ملازمة للإخصاب، كان المطلوب من الشاعر الفحل كثرة الإنتاج، لذلك حرم الأصمعي معقِّرا البارقي الفحولةَ لكونه مُقِلّا وقال :"... لو أتمّ خمسا أو ستا لكان فحلا"[[5]](#footnote-6). وأوس بن مغراء الهُجَيمي الذي "... لو كان قال عشرين قصيدة لَحِق بالفحول، ولكنه قُطع به"[[6]](#footnote-7).

ومقولة الأصمعي السابقة وردت في نص له من كتابه (فحولة الشعراء) المذكور سابقا، يصنف فيه الشعراء حسب الفحولة وعدمها، في عرض يتخذ طابع السؤال والجواب، السائل فيه التلميذ أبو حاتم السجستاني، والمجيب الأستاذ الأصمعي، بحيث يذكر التلميذ اسم شاعر من الجاهليين أو الإسلاميين، طالبا  بيان حظه من الفحولة، فيجيب الأستاذ إجابة خاطفة مركزة، بطريقة الإجابة الوامضة (الفلاش) المعهودة في أسلوب ضيوف البرامج التلفزيونية، وأحيانا في لياقتهم ومجاملتهم، وحسن تخلصهم من حرج الحسم بالحكم، مثل قوله في حاتم الطائي وقد سئل عنه، "إنه يُعدّ بكرم ولم يقل إنه فحل "[[7]](#footnote-8). وفي التردد باستخدام عبارات الشك، كما في قوله عند سؤاله عن كعب بن جُعيل :" أظنه من الفحول ولا أستيقنه"[[8]](#footnote-9). على أن عبارات المجاملة والتردد لا تكاد تشكل كبير نسبة أمام الحسم بالحكم، وصيغه الجازمة.

وفي قراءة تأصيلية ووصفية لنص الأصمعي في الفحولة، يقول الدكتور إحسان عباس :" يعود بنا هذا المصطلح إلى طريقة الخليل بن أحمد في انتخاب الألفاظ الدالة على الشعر من طبيعة الحياة البدوية، فالفحل جملا كان أو فرسا، يتميز بما يناقض صفة "اللين" التي يكرهها الأصمعي في الشاعر، وبالفحولة يتفوق على ما عداه ... لهذا انقسم الشعراء لدى الأصمعي في فئتين: فحول وغير فحول..."[[9]](#footnote-10).

وفي تحليل لمعناها وما تتطلبه من صفات يقول: " يتجلى لنا في هذا النص أن الفحولة صفة عزيزة، تعني التفرد الذي يتطلب:

(أ) غلبة الشعر على كل صفات أخرى في المرء، فرجل مثل حاتم قد يقول قصائد ولكنه يعد في الأجواد ولا يسمى فحلا لأن الشعر لا يغلب عليه؛ وكذلك أشباه زيد الخيل وعنترة، فإنهم فرسان يقولون شعرا، وحسب.

(ب) وأن غلبة صفة الشعر تستدعي عددا معينا من القصائد التي تكفل لصاحبها التفرد، فالقصيدة الواحدة كما هي مرثية كعب بن سعد الغنوي لا تجعل من صاحبها فحلا. ويتفاوت هذا العدد، على قاعدة لا ندريها، فهو خمس قصائد أو ست أو عشرون"[[10]](#footnote-11).

سبق في نص الجاحظ روايته مقولة لرؤبة بن العجاج حكاية عن الأصمعي، يجعل فيه الفحولة صفة للرواة، وهو ما يشترطه ابن رشيق للشاعر إذا طلب الفحولة في الصناعة الشعرية، فتلك مرتبة يجب أن تُمهر أول ما تمهر برواية أشعار العرب، إلى جانب مطالب أخرى تلحق بها من بعد، يقول :"لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلا حتى يروي أشعار العرب ويسمع الأخبار ويعرف المعاني وتدور في مسامعه الألفاظ ..."[[11]](#footnote-12).

1. ) الجاحظ: البيان والتبيين، مصدر سابق، ج.2، ص. 9. [↑](#footnote-ref-2)
2. ) ابن منظور: لسان العرب، مصدر سابق، مادة (فحل). [↑](#footnote-ref-3)
3. ) السابق، الموضع نفسه. [↑](#footnote-ref-4)
4. ) الأصمعي: فحولة الشعراء، تحقيق: صلاح الدين المنجّد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط.4، 1400ه/1980م، ص.9. [↑](#footnote-ref-5)
5. ) السابق، ص. 14. [↑](#footnote-ref-6)
6. ) السابق، ص. 15. [↑](#footnote-ref-7)
7. ) السابق، ص. 14. [↑](#footnote-ref-8)
8. ) السابق، ص.12. [↑](#footnote-ref-9)
9. ) إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، مرجع سابق، ص. 51. [↑](#footnote-ref-10)
10. ) السابق، ص. 52-53. [↑](#footnote-ref-11)
11. ) ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، مصدر سابق، ج.1، ص.178. [↑](#footnote-ref-12)